﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النّساء: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أقسم الشَّيطان على اتِّخاذ نصيبٍ منَ العباد لإضلالهم في الآية السَّابقة؛ ناسب أن يذكر في هذه الآية أساليبه في تحقيق ذلك النَّصيب المفروض، فذكر طرقه في الإضلال والوسوسة والانحراف عن شرع الله وفطرته، ثمّ حذَّر الله منِ اتِّخاذه وليًّا؛ ومنَ الخسران المبين الَّذي سيصيب من والاه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: جذر الكلمة هو (ضلَّ)، وضَلَّ يَضِلّ، إذا ضاعَ، يقال: ضَلَّ يَضِلّ[1]، والضَّلال: العدول عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، وضلَّ في الأمر ضلالًا؛ إذا لم يهتد له، وضلَّ في الأرض ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ إلى السَّبيل، ويقال الضَّلال لكلِّ عدول عنِ المنهج عمدًا كان أم سهوًا، يسيرًا كان أم كثيرًا[2].

2) ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: جذر الكلمة هو: (منى)، والتَّمنِّي: تقدير شيء في النَّفس، وتصويره فيها، وذلك يكون عن تخمين وظنٍّ، فلمَّا كان أكثره عن تخمينٍ؛ صار الكذب له أملك، فأكثر التَّمنِّي تصوُّر ما لا حقيقة له، قال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّجم: 24]، وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: 94]، ولمَّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له، وإيراده باللَّفظ؛ صار التَّمنِّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أن يعبَّر عنِ الكذب بالتَّمنِّي، ومنه قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: 78]، قال مجاهد: معناه إلَّا كذبًا[3]. والأمنيَّة واحدة الأمانيِّ، تقول: تمنَّيت الشَّيء، ومنَّيت غيري تمنيةً، وفلانٌ يتمنَّى الأحاديث، أي: يفتعلها، وهو مقلوب منَ المَين، وهو الكذب[4].

(1) الخليل، العين: (ضلل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(3) الرّاغب، المفردات: (منى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (منا).

3) ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: جذر الكلمة هو: (بَتَك)، والبَتْك: قطع الشَّيء، وأصله: قبضك على الشَّيء على شعر أو ريش، أو نحو ذلك، ثمَّ تجذبه إليك فينبَتِك من أصله، أي: ينقطع، وينتتف، وكلّ طاقة من ذلك في كفِّك: بِتكةٌ[1]، وبَتَك الحبلَ: قطعه، وسيفٌ باتِكٌ وبَتوكٌ: قاطعٌ[2].

4) ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: جذر الكلمة: (غَيَر) له أصلان: أحدهما: سِوى الشَّيء وَخِلَافه، والمعنى المحوريّ: تحوّل الشَّيء لحدَة تخالطه تحوّلًا تامًّا أو كالتَّامِّ[3]، والتَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتُها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو: غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[4]، وللعلماء في هذا التَّغيير نحو عشرة أقوال، يشمل أكثرَها تغيير الأبدان عمَّا خلقها اللَّه عليه، وإفساد الفطرة التي فطر اللَّه النَّاس عليها.

5) ﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾: والخلق يقال: في معنى المخلوق، والخَلق والخلق في الأصل واحد، لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصّور المدرَكةِ بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجايا المدرَكَة بالبصيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4][5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللَّه تعالى عن صور غَواية الشَّيطان لعباد اللَّه؛ وذلك بطرق عديدة، وهي كما قال: ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحقِّ، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة والباطلة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لِما أزيِّنه لهم من الباطل، وهو ما كانوا يفعلونه بالأنعام من وَسْمها لأصنامهم وخرافاتهم، وذلك بشقٍّ مخصوص في الآذان، أو قطع مخصوص لبعضها، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق اللَّه في الفِطْرة، وهيئة ما عليه الخَلْق، ومن يستجب للشَّيطان، فينحدر مع غَوايته، ويترك هدايةَ اللَّه، ويتَّخذه ناصرًا له من دون اللَّه القويِّ العزيز؛ فقد هلك هلاكًا بيِّنًا في معاشه ومعاده[6].

(1) الخليل، العين: (بتك).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بتك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غير).
(4) الرّاغب، المفردات: (غير).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/128 - 129، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه عَطْف الجملة على ما قبلها

بـيـانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة

عطفتِ الجملة على ما قبلها؛ لأنَّ الآية بيانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة، من أنَّه سيتَّخذ نصيبًا من بني آدم، وطريق ذلك هو الإضلال والأماني الكاذبة.

دلالة توالي لامات القسم:

إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس

توالَت لامات القسم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾؛ لإظهار إصراره على إضلال النَّاس، واعتَبر ذلك هدفَه الوحيد؛ فعدَّد أساليبه، ونوَّع طرقه من أجل هدفه، وجميعها في معنى التَّحدِّي والإصرار على فعلها، وجميع ما أقسم عليه الشَّيطان هنا من قبيل الشِّرك بالله، أو ما يؤدِّي إليه؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

بيان سرِّ التَّرتيب في هذه الأساليب:

وسـائـل الـشَّـيـطـان في إحكام سيطرته على نصيبه من بني آدم

بدأ بالإضلال، وذلك في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، أي: عن طريقك السَّويِّ بما سلَّطتني به منَ الوساوس، وتزيين الأباطيل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، يعني: كلَّ ما أقدر عليه منَ الباطل من عدم البعث وغيره من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، منَ الدّنيا والآخرة، بالرَّحمة والعفو والإحسان، ونحوه ممَّا هو سبب للتَّسويف بالتَّوبة.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، أي: الَّذي له الحكمة الكاملة، وذلك بأنواع التَّغيير من تغيير الفطرة الأولى السَّليمة إلى ما دون ذلك من فقء عين الحامي، ونحو ذلك، وهو إشارة إلى ما حرَّم أهل الجاهليَّة على أنفسهم بالتَّقريب للأصنام منَ السَّائبة وما معها، المشار إلى إبطاله في أوَّل المائدة بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، المصرَّح به في آخرها

بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، ويكون التَّغيير بالوشم والوشر، ويدخل فيه كلّ ما خالف الدِّين، فإنَّ الفطرة الأولى داعية إلى خلاف ذلك حتَّى أدخلوا فيه تشبيه الرِّجال بالنِّساء في التَّخنّث، وما يتفرَّع عنه في تشبيه النِّساء بالرِّجال في السَّحق، وما نحا فيه نحوَه[1]، فضلًا عمَّا طوَّره اليوم أهل الاختصاص، وما أحدثوه من تغيير في الجينات الوراثيَّة، وما أطلقوا عليه بالهندسة الوراثيَّة[2].

الكناية في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾:

عبَّر بالبتك، وإن كان بمعنى القطع، إلَّا أنَّ القطع أعمّ؛ إذِ البتك يستخدم في تشقيق آذان الأنعام، كما ذكر القرآن في شأن البَحِيرة والسَّائبة ونحوها ممَّا كانوا يثبتون فيه حكمًا؛ بسبب آلهتهم، وبغير ذلك[3]، ولمَّا كان قد علم ممَّا طبعوا عليه منَ الشَّهوات والحظوظ الَّتي هيَّأتهم لطاعته، وكانت طاعته في الفساد عند كلِّ عاقل في غاية الاستبعاد؛ أكَّد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾؛ أي: يقطِّعن تقطيعًا كثيرًا ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ويشقِّقونها؛ علامة على ما حرَّموه على أنفسهم[4].

آثـــر التَّـعـبـير بالبتك لكونه أخـــصَّ مـن القطع

دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصِّ:

ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ وهو من قبيل ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، فذكر الأنموذج والمثال الَّذي كان كثيرًا في فترة من فترات المجتمعات العربيَّة، ثمَّ عمَّم، فذكر القاعدة الشَّاملة لكلِّ عمل فيه تغيير لخلق اللَّه الَّذي يشبه تبتيك آذان الأنعام، وهي كثيرة، وقد دخل في عمومه ما جعله اللَّه تعالى للإنسان من شهوة الجماع؛ ليكون سببًا للتَّناسل على وجه مخصوص،

أشـكـال صـور التَّغيير في خلق الله سبحانه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/407.

(2) فتمكّنوا من إحداث تغييرات في النّتائج، فما كان لأغراض البحث العلمي فلا حرج، وما كان بهدف التّلاعب ومحادّة الخالق سبحانه، فهو من قبيل ما ذكرته الآية في هذه الأقسام، فنتج عن أفعالهم كائنات غير متوازنة في خلقها، وشكلها، وقدرتها على الاستمرار في الحياة الطّبيعيّة، بسبب تلاعب الإنسان بكتاب الخلق، بلا حكمة، ممّا اكتشفوه منَ الجينات، ومسؤوليتها في طبيعة الوراثة.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/114.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/406.

فاستعان به في السِّفاح واللِّواط، فذلك تغيير خلق الله، وكذلك المخنَّث وتشبّهه بالنِّساء، والفتاة إذا ترجَّلَت متشبِّهة بالفتيان، وكلّ ما حلَّله الله، فحرَّموه، أو حرَّمه تعالى، فحلَّلوه، وعلى ذلك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: 59]، وإلى هذه الجملة أشار المفسِّرون، ولهذا قالوا: هو تغيير أحكام الله، وقيل: معاقبة الولَّاة بعض الجناة بقطع الآذان، وشقِّ المناخر، وكَلِّ العيون، وقطع الأنثيين، ومن فسَّر بالوشم، أو الخصاء، أو غير ذلك ممَّا هو خاصٌّ في التَّغيير، فإنَّما ذلك على جهة التَّمثيل لا الحصر[1].

وفي حديث عيَّاض المجاشعيِّ: "وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّ الشَّياطين أتتهم، فاجتالتهم عن دينهم، فحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي، ما لم أنزِّل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيِّروا خلقي"[2].

علَّة البدء بأمر التَّبتيك مع اندراجه في عموم التَّغيير:

الاستدراج لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامّ

بدأ بالأمر بالتَّبتيك، وإن كان مندرجًا تحت عموم التَّغيير؛ ليكون ذلك استدراجًا لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامِّ، واستيضاحًا من إبليس طواعيتهم في أوَّل شيء يلقيه إليهم، فيعلم بذلك قبولهم له، فإذا قبلوا ذلك أمرهم بجميع التَّغييرات الَّتي يريدها منهم، كما يفعل الإنسان بمَن يقصد خداعه: يأمره أوَّلًا بشيء سهل، فإذا رآه قد قبل ما ألقاه إليه من ذلك؛ أمره بجميع ما يريد منه، وإقسام إبليس على هذه الأشياء ليفعلنَّها يقتضي علم ذلك، وأنَّها تقع: إمَّا لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: 85]، وإمَّا لكونه علم ذلك من جهة الملائكة، وإمَّا لكونه لمَّا استنزل آدم علم أنَّ ذرِّيَّته أضعف منه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) مسلم، الحديث رقم: (7309).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72 - 73.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

سرعة إجابة أصحاب الأهواء لأوامر الشَّيطان

قوله تعالى: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ مفعول (آمرَ) الثَّاني محذوف، أي: ولآمرنَّهم بالتَّبتيك، فيبتِّكنَّ، ولآمرنَّهم بالتَّغيير، فليغيِّرنَّ، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وفيه إيجازٌ، ودلالة على سرعة إجابة هؤلاء لأوامر الشَّيطان، فهم منساقون في برنامجه، منفِّذون لأوامره، قابلون بأفكاره، عازمون على تحقيقها، وقرأ أبيٌّ: وأضلنَّهم وأمنِّينَّهم وآمرنَّهم، فتكون جملًا مقولة، لا مقسمًا عليها[1].

سرّ وجود لام الأمر في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

تمكّن الشَّيطان من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره

دلَّ وجودها بعد قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ على تمكّنه من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره بأن يبتِّكوا آذان الأنعام؛ فأمرهم فامتثلوا، وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ العرب في جاهليَّتهم كانوا يقطعون آذان الأنعام الَّتي يجعلونها لطواغيتهم علامة على أنَّها محررَّة للأصنام، فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، فكان هذا الشَّقّ من عمل الشَّيطان؛ إذ كان الباعث عليه غرضًا شيطانيًّا[2].

دلالة تكرار قوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾:

إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس

تكرَّرت جملة ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ﴾ في موضعين هما: في تغيير خلق الله، فذكر الخاصَّ أوّلًا، وهو تبتيك آذان الأنعام، وهو يدخل في تغيير خلق الله، ثمَّ ذكر العامَّ، وهو قوله: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾، وفائدة ذلك بيان إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس بإغوائهم وارتكابهم الأفعال الشَّنيعة الَّتي تشتمل على تحدِّي الله تعالى في خلقه، وتغييره، وهي من أخطر الأعمال الَّتي تؤكِّد مرجعيَّة هؤلاء إلى الشَّيطان وولايتهم له.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

دلالة اختيار التَّعبير بـ﴿خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ دون فطرة الله:

الخلق أعمّ؛ ليشمل الأشكال، والسَّجايا

اختار التَّعبير بـ﴿خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ دون فطرة الله؛ لأنَّ خلق الله أعمّ، فيشمل ما كان بالهيئات والأشكال والصّور، وما كان بالقوى والسَّجايا، بخلاف الفطرة، فهي مقصورة على الدِّين والإيمان، وما فعله أتباع الشَّيطان لم يقف عند حيِّز الشَّكل والهيئة، بل شمل الجانب الماديَّ والمعنويَّ، وما فعله العرب في الجاهليّة بالأنعام دليل على ذلك؛ فهو فاقدٌ الأخلاقَ والرَّحمة.

ففي الجانب الماديِّ وقع التَّغيير لدواعٍ سخيفة مردّها إلى عبادة الأصنام مثل: فقء عين الحامي: وهو البَعير الَّذي حمى ظهره منَ الرّكوب لكثرة ما أنسلَ، ومثل: قطع آذان الأنعام؛ فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم؛ إذ أرادوا به التَّزيّن، وهو تشويهٌ، ووسم الوجوه بالنَّار، ويدخل في معنى تغيير خلق الله المعنويِّ وضع المخلوقات في غير ما خلقها الله له، وهو منَ الضَّلالات الخرافيَّة، كجعل الكواكب آلهة، وجعل الكسوفات والخسوفات دلائل على أحوال النَّاس، ويدخل فيه تسويل الإعراض عن دين الإسلام الَّذي هو دين الفطرة، والفطرة خلق الله، فالعدول عنِ الإسلام إلى غيره تغيير لخلق الله[1].

بيان بلاغة فنِّ التَّدلِّي في الآية:

الانحدار في دركات الآثام تبدأ مِنَ الرِّضا بأقلّها

تظهر بلاغة فنِّ التَّدلِّي في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ في الأقسام الَّتي أقسم إبليس عليها: أوَّلها: اتِّخاذ نصيب من عباد الله، وهو اختياره إيَّاهم. والثَّاني: إضلالهم، وهو صرفهم عنِ الهداية وأسبابها. والثَّالث: تمنِيَته لهم، وهو التَّسويل؛ لأنَّ صاحب الأمانيِّ يشغل عقله وفكره في استخراج المعاني الدَّقيقة والحيل والوسائل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

اللَّطيفة في تحصيل المطالب الشَّهوانيَّة[1]، ولا تنحصر الأمانيّ في نوع واحد؛ لأنَّه يمَنِّي كلَّ إنسان بما يناسب حاله، من طول عمر، وبلوغ وطر، وغير ذلك، وهي كلّها أمانيّ كواذب باطلة، أو الأمانيّ: تأخير التَّوبة، أو هي: اعتقاد أن لا جنَّة ولا نار، ولا بعث ولا حساب،[2] والرَّابع: أمره إيَّاهم النَّاشئ عنه تبتيك آذان الأنعام، وهو فعلهم بالبحائر؛ إذ كانوا يشقّون آذان النَّاقة؛ إذا ولدت خمسة أبطن[3]. والخامس: أمره إيَّاهم النَّاشئ عنه تغيير خلق الله تعالى.

وعمدة أمر الشَّيطان إنَّما هو بإلقاء الأمانيِّ في القلب، وأمَّا تبتيك الآذان وتغيير الخلقة؛ فذاك من نتائج إلقاء الأمانيِّ في القلب، ومن آثاره، فلا جرم أنْ نبَّه الله تعالى على ما هو العمدة في دفع تلك الأمانيِّ، وهو أنَّ تلك الأمانيَّ لا تفيد إلَّا الغرور، والغرور هو أن يظنَّ الإنسان بالشَّيء أنَّه نافع ولذيذ، ثمَّ يتبيَّن اشتماله على أعظم الآلام والمضارِّ، وجميع أحوال الدّنيا كذلك، والعاقل لا يلتفت إلى شيء منها[4].

ويظهر واضحًا فنّ التَّدلِّي في ترتيب هذه الجمل المقسم عليها في غاية منَ الفصاحة، وعلى طريقة أسلوب التَّدلِّي، فبدأ أوَّلًا باستخلاص الشَّيطان نصيبًا منهم، واصطفائه إيَّاهم، ثمَّ ثانيًا بإضلالهم، وهو عبارة عمَّا يحصل في عقائدهم منَ الكفر، ثمَّ ثالثًا بتمنِّيهم الأمانيَّ الكواذب والإطماعات الفارغة، ثمَّ رابعًا بالأفعال، بتبتيك آذان الأنعام: هو حكم لم يأذنِ الله فيه، ثمَّ خامسًا بتغيير خلق الله، وهو شامل للتَّبتيك وغيره منَ الأحكام الَّتي شرعها لهم، فيكون بين تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله كالعلاقة بين الخاصِّ والعامِّ.

دلالة جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾:

ولمَّا كان القسم المحوريّ هو قسم الشَّيطان باتِّخاذه نصيبًا مفروضًا، من عباد الله، أي: من خلقه المكلَّفين، وسمَّاهم بعباد الله؛ لأنَّه كان منَ الأَولى أن يكونوا كذلك عبادًا لله لا عبادًا للشَّيطان، ثمَّ عدَّد في هذه الآية أساليب هذا الاتَّخاذ، فذكر الإضلال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/600.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/71.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.

والأمانيِّ والأوامر، وقال بعدها: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فجعل اتِّخاذ الشَّيطان وليًّا يكون باتِّباع هذه الأفعال، فأفاد جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾ بيان محاور الاتِّخاذ الَّتي ذكرناها آنفًا منَ الإضلال والأمانيِّ والأوامر، والتَّنبيه عليها، والتَّحذير منها، فقال: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ﴾، أي: من تابعه في ذلك؛ لأنَّه صار للشَّيطان وليًّا.

الإصـــرار مـنَ الشَّـيطـان على اتِّـخـاذ الـنَّـاس أولياء

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَتَّخِذِ﴾:

جاء التَّعبير بالاتِّخاذ في قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾ في مقابلة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا اصطفاهم لنفسه؛ فكأنَّهم قبلوا ذلك الاتِّخاذ، وانفعلوا له، وامتثلوا أمره، فرضوا بعبادته، واتَّخذوه وليًّا.

المطيع للشَّيطان يـرضى بـالـذِّلَّـة والمهانة

وجه التَّعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيد لازم؛ لأنَّه لا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا إلَّا إذا لم يتَّخذِ الله وليًّا، ولا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا، ويتَّخذ الله وليًّا؛ لأنَّهما طريقان متباينان، لا تجتمعان هدًى وضلالة.

لا يجتمع حبّ الله والشَّيطان في قلب واحد

سرّ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾:

جاءتِ الجملة الشَّرطيَّة للتَّحذير منِ اتِّباع الشَّيطان، وبيان فظاعة ما يفعله هؤلاء منَ الضَّلال، وبيان ما يفعلونه من كبار الإثم منطلقين من أصلٍ واحدٍ، هو الشَّرك بالله سبحانه، واتِّخاذ الشَّيطان وليًّا.

الـتَّـحـذيـر مـنِ اتِّـبـاع الشَّيطان وبـيـان فظاعة صنيعه

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾:

هذا الأسلوب دالٌّ على أنَّ الشَّيطان لا يرضى من أتباعه إلَّا بالكفر والاتِّباع لدعوته، فلمَّا دعاهم إلى تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، إنَّما دعاهم إليه لَمَا يقتضيه منَ الدِّلالة على استشعارهم

من اتَّخذ ولاية الشَّيطان خسر ولاية الرَّحمن

بشعاره، والتَّديّن بدعوته، وإلَّا فإنَّ الشَّيطان لا ينفعه أن يبتك أحدٌ أذن ناقته، أو أن يغيِّر شيئًا من خلقته، إلَّا إذا كان ذلك للتَّأثّر بدعوته[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ من فعل ما أمره الشَّيطان به، وترك ما أمره الرَّحمن به، صار كأنَّه اتَّخذ الشَّيطان وليًّا لنفسه، وترك ولاية الله تعالى.

دلالة التَّعبير بالخسران دون غيره:

طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة

عبَّر به؛ لأنَّ طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة الخالصة من شوائب الضَّرر، بخلاف طاعة الشَّيطان، فالمنافع فيها مشوبة بالهموم والأحزان والآلام الغالبة، فمَن رغب في ولاية الشَّيطان؛ فاته أشرف المطالب وأجلّها، وهذا هو الخسران المطلق.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّغيير والتَّبديل:

التَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[2].

أمَّا التَّبديل؛ فهو جعل شيء مكان آخر، وهو أعمّ منَ العِوَض؛ فإنَّ العِوَض هو أن يصير لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل، والتَّبديل قد يقال للتَّغيير مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، والآيات ظاهرة في ذلك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/206.
(2) الرّاغب، المفردات: (غير).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»